مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 3 السنة: 2022
ص: 170 - 184 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

المضمرات النسقية لخطاب المدح في مقامات ابن ميمون الجزائري.

المقامة الأولى:"في نبذة من أخلاقه المرضية وممّا أشار به عليه بعض السّادات الصّوفية" نموذجا

The contextual tacit themes of praising discourse in the Maqams of Ibn Mimon the Algerain.

First Maqam « An overview of his satisfactory manners and some of what masters of sufism have advised him » Model

سيرين بن حميود[1] * / راشد شقوفي[2]

SerineBenhamioud[1] / RachedChgoufi[2]

مخبر اللغة وتحليل الخطاب

جامعة محمد الصديق بن يحي –جيجل-)الجزائر

University of Mohamed Seddik Ben Yahya-Jijel-Algeria

benhamioudserine@gmail.com[1] / Rchegoufi@univ-jijel.dz[2]

تاريخ الإرسال: 2022/02/24	تاريخ القبول: 2022/03/17	تاريخ النشر: 2022/09/02

ملخص البحث

تنوّع فن المقامة في الأدب العربيّ فبدا متعدّد المواضيع والقضايا متلوّنًا بمعطيات بيئته، حاملا لأنساق مختلفة تتماهى أحيانا، وتطفو على السطح تارة أخرى.

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الأنساق المضمرة في خطاب المقامة الأولى عند **ابن ميمون الجزائري** الموسومة "في نبذة من أخلاقه المرْضيّة وممّا أشار به عليه بعض السّادات الصوفية"، الذي يبدو في ظاهره مدحا لشخصية الداي **محمد بكداش**، لكنّ هذا المدح يحمل بين ثناياه كثيرا من الدّلالات، فكيف أضمر الخطاب المدحي منظومة نسقية مضمرة؟ ما هي أشكال المدح التي اتخذها **ابن ميمون** في مقامته؟ وما الدّلالات التي تحملها هذه الأنساق؟. وعليه ترد هذه الدراسة التحليلية وفق المحاور الآتية:

*أشكال المدح في مقامة **ابن ميمون الجزائري**: المقامة الأولى"في نبذة من أخلاقه المرضية وممّا أشار به عليه بعض السادات الصوفية."

*الأنساق المضمرة للمدح في مقامة **ابن ميمون الجزائري**.

الكلمات المفتاح : نسق، مضمر، مدح، مقامات، ابن ميمون الجزائري.

* سيرين بن حميود: benhamioudserine@gmail.com

Abstract :

The art of the maqam in Arabic literature was varied and was influenced by the data of its environment. It seemed to be a multi-themes and a bearer of different formats, sometimes identifiable, and resurfacing at other times.

This study seeks to reveal the contextual tacit in The First Maqam at " Ibn Maimon the Algerian" named (An Overview of his Satisfactory Manners and Some of what Masters of Sufism have Advised him). On the surface, it seems to praise the personality of the Alday, Mohammed Bakdash, but this praise carries many connotations within it, so how can the praiseing discourse imply an implicit systemic system?, what forms of praise that Ibn Maimon used in his Maqams, and what are the connotations of these formats ?. Accordingly, this analytical study is presented according to the following themes:

* Forms of praise in Maqam of Ibn Maimon the Algerian : the first Maqam «An Overview of his Satisfactory Manners and Some of what Master of Sufism have advised him»

* Tacit forms of praise in Maqam of Ibn Maimon the Algerian.

Keywords: contextual, tacit, praise, maqams, Ibn Maimon the Algerian.

المقدمة:

امتاز فن المقامة بمجموعة من المميزات والخصائص الفنية، التي أرسى دعائمها **بديع الزمان الهمذاني** (ت398هـ)، وتبعه فيها الرواد الأوائل، لكن مع مرور الزمن تغيرت بعض سمات الأصل وملامحه، كما هو الحال في مقامات **ابن ميمون الجزائري***، التي اختلفت شكلا ومضمونا عن باقي المقامات؛ حيث غاب فيها عنصر الكدية، وبدل الراوي والبطل الوهميان حل الراوي الحقيقي، وهو المؤلف نفسه الذي اتخذ بطلا حقيقيا ممثلا في الداي **محمد بكداش** وجعله محور حديثه، حيث تعرض **ابن ميمون الجزائري** في مقاماته إلى سيرة هذا الداي وما صاحب فترة حياته من أحداث، فجاءت مقاماته جامعة بين المبنى الأدبي والمعنى الواقعي.

والمقامة الأولى من مجموع هذه المقامات "**في نبذة من أخلاقه المرضية وممّا أشار به عليه بعض السّادات الصوفية**" جاء خطابها في مدح شخص الدّاي **محمد بكداش**، واتّخذ صورا وأشكالا متعددة حيث خلع ابن ميمون على ممدوحه صفات مدح انطلاقا من تراكمات وخلفيات مختلفة ماخلق مزيجا من الأنساق المضمرة والمتزاحمة جاءت في هذا السياق.

يطرح البحث إشكالية رئيسية هي:كيف أضمر الخطاب المدحي منظومة نسقية مضمرة؟، تتفرع إلى إشكاليتين فرعيتين هما: ما هي أشكال المدح التي اتخذها ابن ميمون في مقامته؟ وما الدلالات التي تحملها هذه الأنساق؟

وتتمثل أهمية البحث في كونه يسعى إلى الكشف عمّا أضمره خطاب المدح في مقامة **ابن ميمون الجزائري** "في نبذة من أخلاقه المرْضِيّة ومما أشار به عليه بعض السادات الصوفية" وهي مقامة غلب عليها المدح بمختلف أشكاله ممّا جعلنا نحاول أن نفهم سرّ هذا التكثيف والغاية من ذلك.

ويهدف البحث إلى إبراز أشكال وصور المدح التي وظفها الكاتب في هذه المقامة، والأنساق التي أضمرها خطاب المدح ودلالاته .

ومن هنا فقد كان منهج البحث وصفيا تحليليا؛ بعرض صور المدح وأشكاله التي تنوعت في المقامة ومحاولة استنطاق نص المقامة والحفر في بنيتها النصية وبيئتها الثقافية لاستخراج المضمرات المتوارية خلف خطاب المدح.

أمّا عن الدراسات السابقة فلم نجد – حسب اطلاعنا – أي دراسة تتعرض لمقامات ابن ميمون الجزائري ثقافيا.

أولا: ضبط المصطلحات المفاتيح.

1/النّسق .

النّسق في المعاجم العربية يعني النّظام والتّرتيب والانسجام، فقد عرفه **ابن منظور** بقوله:" النَّسَقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ نِظَامٍ وَاحِدٍ عَامٌ فِي الأَشْيَاءِ، وَقَدْ نَسَّقْتُهُ تَنْسِيقًا[...]. يُقَالُ: نَاسَقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: أَيْ تَابَعَ بَيْنَهُمَا[...]، والتَّنْسِيقُ: التَّنْظِيمُ."[1]، وجاء في المعجم الوسيط:"نَسَقَ الكَلاَمَ: عَطَفَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ[...]، وَالنَّسَقُ مَا كَانَ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [...]. يُقَالُ: كَلاَمٌ نَسَقٌ: مُتَلاَئِمٌ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ"[2]. يحيل مفهوم النّسق إلى مجموعة من الخصائص المتمثلة إجمالا في الانتظام في كلّ موحد، والتتابع الذي يخلق انسجاما بين عناصره.

يبدو المفهوم اللغوي لمفردة النسق متوافقا مع دلالته الاصطلاحية التي تعتبر النّسق"مجموعة القوانين والقواعد العامة التي تحكم الإنتاج الفردي للنوع وتمكنه من الدلالة، ولما كان النسق تشترك في إنتاجه الظروف والقوى الاجتماعية والثقافية من ناحية، والإنتاج الفردي للنوع من ناحية أخرى وهو إنتاج لا ينفصل هو الآخر عن الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة، فإن النسق ليس نظاما ثابتا وجامدا، إنّه ذاتي التنظيم من جهة، ومتغيّر يتكيف مع الظروف الجديدة من جهة ثانية، أي أنّه في الوقت الذي يحتفظ ببنيته المنتظمة يغير ملامحه عن طريق التكيف المستمر مع المستجدات الاجتماعية والثقافية"[3]، فالنّسق إذن كلّ موحد له القدرة على التحوّل والانفلات مرتبط بثقافة المجتمع، يتغلغل بين أفراده ويتكيف مع ظروفه من أجل التأثير فيهم وتوجيههم وفق منطقه الخاص والسّيطرة عليهم. أمّا **الحجيلان** فينقل تعريف النّسق عن **ميشال فوكو** بأنّه "بنية نظرية تهيمن في كلّ عنصر على الكيفية التي يحيا عليها البشر ومن خلالها يفكرون "[4]. فالنّسق بمثابة قانون أو منظومة يسير وفقها المجتمع وبمقتضاها يفكر.

2 /المضمر.

عرّف **ابن منظور** في معجم "لسان العرب" المضمر كما يأتي: "ضمر الضُّمْرُ والضُّمُرُ، الهُزَالُ وَلَحَاقُ البَطْنِ[...]،وتَضْمِيرُ الخَيْل هُوَ أَنْ يُظَاهِرَ عَلَيْهَا بِالْعَلَفِ حَتَّى تَسْمُنَ ثُمَّ لَاتُعلف إِلاَّ قُوتا. المضْمَرُ الموضعُ والمفعولُ[...]. وَأَضْمَرْتُ الشَّيءَ أَخْفَيْتُهُ"[5]، فالمضمر يتّخذ معنى الإخفاء والستر، أمّا اصطلاحا فهو: "مفهوم عام يلازم الأشياء والمفاهيم وحتى الألفاظ ملازمة اعتبارية بحيث لا يخلو شيء أو مفهوم أو لفظ منه على الإطلاق فـ(يضمر) تعني أنّ المفهوم أو النظرية أو الشيء أو اللفظ يخفي على وجه الإلزام معنًى أو أمرا آخر لا يماثل ما هو مظهر منه"[6]، ويرى **طه عبد الرحمن**" أنّ الإضمار مصطلح وضع للتعبير عن (عدم التصريح) المتعلق بالدليل، وما يعنيه ذلك هو أنّ هناك دليلا خفيا متعلقا بالمضمر أو هو الذي يدل على وجود المضمر وفحواه"[7]، هذا يعني أنّ المضمر هو المتخفي والمبطن الذي يختلف عن الظاهر، ولكن هناك ما يحيل إليه.

انطلاقا من تعريف النسق والمضمر، "يأتي مفهوم النسق المضمر في نظرية النقد الثقافي بوصفه مفهوما مركزيا والمقصود هنا أنّ الثقافة تملك أنساقها الخاصة التي هي أنساق مهيمنة، وتتوسل لهذه الهيمنة عبر التخفي وراء أقنعة سميكة، وأهم هذه الأقنعة وأخطرها في دعوانا قناع الجمالية، أي أنّ الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا آخر غير الجمالية، وليست الجمالية إلاّ أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كلّ ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمر، ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي

تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع"[8]، فالأنساق المضمرة تكونها الثقافة وتحميها، ومن خصائصها التراكم في اللاوعي الجمعي والتخفي تحت القناع البلاغي والجمالي، ولا يمكن معرفتها إلاّ بوجود متلق أو قارئ ثقافي .

3/ المدح.

عرفه **ابن فارس** بقوله: "(م د ح) الميمُ والدَّالُ وَالحَاءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ عَلَى وَصْفِ مَحَاسِنَ بِكَلَامٍ جميلٍ، وَمَدَحَهُ يَمْدَحُهُ مَدْحًا: أَحْسَنَ عَلَيْهِ الثَّنَاءَ. والأُمْدُوحَةُ: المدْحُ. وَيُقَالُ المَنْقَبَةُ أُمْدُوحَةٌ أَيْضًا."[9]، أمّا من الناحية الاصطلاحية، فالمدح يعني ذكر فضائل الشخص، ومكارم أخلاقه، والثناء عليه، ويتّخذ عدّة صور كالفخر بالنسب، تعداد المزايا، والثناء وإظهار التقدير الخ...، ويكون صادقا أحيانا كما قد يتّخذ صفة الغلو أحيانا أخرى.

4/المقامة.

عرّفها **عبد الملك مرتاض** بقوله:"لفظ مقامة اشتق من قام، وهو اسم مكان القيام، ثم توسّع فيه حتى أطلق على كلّ ما يقال في هذه المقامة – أي المجلس – من كلمة أو خطبة –كلّ حديث أدبي – "مقامة". ثم تطور مدلول هذا اللفظ حتى صار مصطلحا خاصا يطلق على حكاية، وأحيانا على أقصوصة، لها أبطال معينون وخصائص أدبية ثابتة، ومقومات فنية معروفة."[10]، فمدلول كلمة مقامة أطلق على مكان القيام أو المجلس اشتقاقا من الفعل قام ثم تطور مدلول هذه الكلمة ليطلق على كلّ ما يقال في المجلس من حديث أو حكاية، وعلى هذا الأساس أطلق **الهمذاني** مصطلح مقامات ليدل على حكاية تقوم على خصائص فنية ثابتة، ولكن مقامات **ابن ميمون الجزائري** اختلفت عن باقي المقامات فجاءت في تخليد سيرة الداي **محمد بكداش**، ولهذا تعد هذه المقامات مرجعا تاريخيا مهمّا حول تاريخ الجزائر في القرن الحادي عشر الهجري، ويتمظهر من خلال نص المقامة الأولى" في نبذة من أخلاقه المرضية ومما أشار به عليه بعض السّادات الصّوفية" المدح بصورة ملفتة، برز من خلاله بطل المقامات الدّاي **محمد بكداش** في صورة بطل أسطوري اجتمعت فيه كلّ صفات المثالية وسقطت عنه كلّ المساوئ.

ثانيا: أشكال المدح في مقامة ابن ميمون الجزائري.

لم يترك **ابن ميمون الجزائري** خصلة حميدة أو سلوكا حسنا إلاّ ووصف به الدّاي **محمد بكداش** حيث تعدّدت أشكال المدح وتنوّعت في المقامة واتخذت الصّور الآتية:

1/ الفخر بالنّسب.

افتتح **ابن ميمون** مقامته بالفخر بنسب **محمد بكداش**، وهي صورة عهدناها في الموروث العربي القديم، "أبوه وهو نور الدين أبو الحسن علي بن محمد القرشي النّسب، العربي الإقليم النّكداني الدار والمنشأ، وبها توفي."[11]، فنسبه كريم فهو من قريش ومن أصل عربي كأن **ابن ميمون** يريد أن يقول بطريقة غير مباشرة أنّ نسبه قريب من نسب الرسول صلى الله عليه وسلم فكلاهما عربيّ ومن قبيلة قريش إضافة إلى النّسب الشريف نشأ بمدينة نكدا، فاختلفت منابع الثقافة، والتي سيكون لها دور مهم مستقبلا في تكوين الشخصية وصقلها.

لقد ذكر كاتب المقامة نسب الدّاي في البداية ليثير انتباه المتلقي أولا ويجعله مشحونا بالعواطف، ثم يخلق مهلة زمنية يمهد من خلالها طريقة التلقي التي يحدّدها سلفا، فهل كان **ابن ميمون** يا ترى يقدم سيرة حميدة، أم أنه كان يمدح شخصه من جهة، ومن جهة أخرى يستثمر مخزون اللاّوعي الجمعي، وبتحايل يمرر أنساقا أخرى تتخفّى تحت غطاء الجمالية. فالمقامة مدلولها الصريح مدح وافتخار، لكنّها في الحقيقة استطاعت تمرير رسائل متعددة ومضمرات لا يمكن أن تنكشف إلاّ من خلال قراءة ثقافية معمقة، يؤدي فيها النص دور الحامل لمضمرات دفينة خلف ظاهر الخطاب.

لعل ذكر **ابن ميمون** لنسب الدّاي **محمد بكداش** لم يكن اعتباطا، لأنه يريد أن يرسم صورة حسنة عنه من البداية انطلاقا من شيء مضمر في الذّات العربية التي تنظر بعين الإجلال لكلّ ماله صلة بالرسول صلى الله عليه وسلم والذي منه النسب القرشي، فظاهر النص يشير إلى النسب، لكنّ المضمر شيء آخر كأنه يريد أن يقول منذ اللحظة الأولى إنّ هذا الفتى أهل للرياسة والقيادة وأولى الفضائل التي تؤهله لذلك هي نسبه الشريف، لكن بعد ذلك اختار الصمت لفترة، وهذا الصمت لم يكن عفويا بل جاء متعمدا ليترك المجال للمتلقي، وهي الفترة التي يستحضر من خلالها هذا المستمع جميع المرجعيات الدّينية والاجتماعية والثقافية أثناء عملية التلقي .

بعد ذلك يستمر في عرض باقي سمات هذا الأصل الشريف"كان من أهل الفضل والمجد، ونفحة مسك عبقت بين غور ونجد، ونبعة أصالة ومروّة، وآية جلالة بألسنة الأقاليم السبعة مقرّة."[12]، فالدّاي **محمد بكداش** كان والده من أصل كريم، صاحب مروءة وكرم، فضله وسع الناس جميعا، وزاد على هذه الفضائل كلها أنّه كان متقنا للغات مختلفة ثم يعود مجدّدا ليذكرنا بنسبه مرة أخرى فيقول:"وفي نسبه إلى أهل بيت جليل."[13]، وهذا التأكيد له أهداف وغايات ودلالات يضمرها صاحب المقامة.

2/تعداد الفضائل.

بعد أنّ ذكر **ابن ميمون** نسب الداي **محمد بكداش** شرع في تعداد مناقبه، التي تكتمل من خلالها صورة هذا الممدوح فقد كان" ممن تعددت في الفضائل مناقبه، ذا مجد تسامت –على الأنجم الزهر في نشر العاطر من الزهر–مآربه."[14]؛ فقد كثرت وتنوعت خصاله وتسامت أفعاله مضاهية بذلك في علوها علو نجوم السماء، "يرجع في نظره إلى عقل حصيف ودين متين، وسلوك من النزاهة التامة على سبيل مبين"[15]؛ يتميز برجاحة العقل وله خبرة في تدبير الأمور مرجعه في ذلك تحكيم العقل والدّين فيما عرض له، نهجه النزاهة والإخلاص والطريق السّوي، لا يحيد عن الصّواب، "فمن تمّ وبنيانه مؤسس على التّقوى، والمراقبة في السّر والنجوى، وما اطّلع عليه أحد بفساد منذ أقبل، إلاّ بحسن السّيرة والعفاف فيما استدبر/ أو استقبل، والقلب منه متشبّث بالأولياء وممازحة الفقراء والمساكين والأصفياء"[16]؛ كان ممدوح **ابن ميمون** من أهل الصّلاح والتقوى يخاف الله في كلّ صغيرة وكبيرة، ذا عفة حميد السيرة رحيما بالمساكين والفقراء ممازحا لهم ولرجال الدّين واصلا مستنصحا.

وهكذا يستمر كاتب المقامة في استعراض مناقب الداي إلى غاية نهاية المقامة "حاز قصب السّبق في المضمار وجال[...] والظّلم منه محال[...] في أصالته الرفيعة العماد[...] واضح المذهب، متحليا بالوفاء والصدق والولاء المهذّب."[17]؛ فهو رجل حرب وأوّل من يتقدم الجيش إلى ساحة المعركة لشجاعته وبسالته، إلى جانب ذلك يستحيل أنّ يظلِم أو يُظْلَم عنده أحد، أصيل منبته رفيع، مذهبه بيّنٌ للناس فلا يظهر عقيدة ويخفي أخرى، صادق القول والعمل، لباسه الوفاء، وولاؤه لا يعتريه تملّق أو زيف.

لقد أفاض كاتب المقامة في وصف الداي **محمد بكداش** وذكر مناقبه وفضائله، حتى أنّه يعيد أحيانا ما ذكره إعجابا بهذا الرجل، الذي كان له فضل كبير على الأمة بانتصاراته على الأعداء وإقامة شرع الله وعدله وحلمه، ولأهداف أخرى يضمرها كاتب المقامة، ورغم أنّه كان فعلا رجلا شريفا جامعا لفضائل عدّة، إلاّ أنّ **ابن ميمون** كاد يبلغ به مرتبة الكمال ويجعله بطلا أسطوريا.

3/ تخليد سيرة الممدوح.

غالبا ما يكون هناك دافع لتخليد سيرة الأفراد والجماعات، وقد وجد **ابن ميمون** أسبابا متعددة ذاتية وموضوعية ليضع بين أيدي الأجيال سيرة الداي **محمد بكداش** في شكل مقامة، كمثال عن القائد المثالي الذي يقود الأمة، ويحسن إدارة شؤونها والحفاظ على وجودها واستقرارها، فقد سعى إلى ذكر تفاصيل كثيرة عن ممدوحه ليبقى رمزا عبر التاريخ، ولا أدلّ على ذلك من وصول هذه المقامات إلينا بعد قرون عديدة.

لقد اتخذ مدح **ابن ميمون** للدّاي شكل الافتخار بالنسب، وتعداد الفضائل وكان ذلك مبعثا إلى تخليد سيرته، فقد ذكر أنه ينتمي إلى عائلة متدينة في كثير من المواضع "كان [...] وآية جلالة بألسنة الأقاليم السّبعة مقروّة."[18]، "لازم الشيخ سيدي قاسم صاحب الأسرار النواسم."[19]، ويعود نسبه إلى قبيلة قريش العربية "القرشي النسب العربي الدار"[20]، كما ذكر أنّه كان من أهل العلم والبصيرة "وأبقى الله سيرته عدة للكمال، متكفلة للدّين ببلوغ الآمال، جليل العلاء، عالي الجلال."[21]، وعرّفنا تاريخ دخوله الجزائر "ولما كمل شرخ شباب مولانا أقبل إلى الجزائر، يا حبذا –به من زائر –، وكان ذلك في سنة ستّ وثمانين بعد الألف"[22] ، ثمّ المنصب الذي تقلّده " فكتبوه في العسكر"[23]، وسفره مع الجيش " ثمّ سافر مع النّمط في محال"[24] وانتقاله إلى بونة(عنابة) وملازمته لأحد علمائها وصلحائها "وقد كان قبل هذا انتقل إلى بونة [...] ولازم الشّيخ سيدي قاسم صاحب الأسرار النواسم"[25].

لقد وصف **ابن ميمون** ممدوحه وصفا دقيقا ليرسم صورة استثنائية عن الداي **محمد بكداش**، هكذا "يصف المدح بحور أشخاصا فوق مستوى البشر ليمثل انزلاقا ذا تنويعات متعددة يعكس التعدد والمزيج التي يميز المقامة"[26]. فالمدح في المقامة خرج إلى غايات وأغراض أخرى.

تظهر القراءة الثانية لمقامة **ابن ميمون الجزائري** وجود نسقين، أحدهما ظاهر معلن والثاني مضمر خفي يتوسل بالجمالية لتمرير نفسه وتمكين فعله في الذات الجزائرية، فما هي الأنساق المضمرة للمدح في المقامة؟.

ثالثا: الأنساق المضمرة للمدح في مقامة ابن ميمون الجزائري.

تبدو المقامة في ظاهرها مدحا للداي **محمد بكداش**؛ حيث عمد **ابن ميمون** إلى ذكر النّسب الشريف لممدوحه وتعداد مناقبه وفضائله وتخليد سيرته، ولكن وراء هذا المدح تتخفى أنساق متعددة تحت غطاء الجمالية، فالنص"مادة خام يستخدم لاستكشاف أنماط معينة من مثل الأنظمة السردية والإشكالات الإيديولوجية وأنساق التمثيل وكلّ ما يمكن تجريده من النص"[27]؛ هذه الأنساق التي لم يكن حتى المؤلف على دراية بها وإنّما هي نتيجة تراكمات الثقافة بكل تشعباتها وامتداداتها، وأهمّها ما يأتي:

1/ النّسق الديني.

من أهمّ العناصر التي تشكل هوية الشعوب وانتماءاتها عنصر النسق الديني، الذي يتكئ على مجموعة من الرموز الدينية كما يشير إلى الاعتقادات التي كانت سائدة إبان فترة حكم الدولة العثمانية في الجزائر"فأوصى مولانا حين كان صغيرا أنّ ابني هذا سيكون على المغرب أميرا وحقق الله به قوله، وكمل فيه

مرغوبه وسؤله"[28]، فالنّبوءة من الأمور التي يؤمن بها المجتمع الجزائري ويعتقد بها اعتقادا يقينيا وإلاّ ما كان **ابن ميمون** قد تجرّأ هذا القول، إذ لو كان الأمر خلاف ذلك لجرّ عليه ذلك كثيرا من المشاكل ولخاف على نفسه ألسنة العلماء والفقهاء، فهل يا ترى علم الوالد قدر ابنه ؟، مع العلم أنّ الكلام قد لا يعود إلى والد الداي **محمد بكداش**، بل المرجّح أنّه من تأليف الكاتب نفسه ليوجه خطابه وجهة مقصودة يدعمها العقل الجمعي المحكوم بتصورات وقناعات ثقافية راسخة، "بمعنى أنّ هناك أنماطا سلوكية ثقافية تتحرك وتتفاعل وعبر هذا التحرك والتفاعل تتخلق نماذج للقول تسود في الخطاب، ومن ثم يأتي الاستعمال الذي يعني وضع الخطاب في وظيفة بأن تجعله يعمل ويعمل به."[29]. ويكشف لنا نصّ المقامة عن رغبة ملحة من طرف الكاتب في أسطرة بطل المقامة، ليرجح الكفة لحسابه بأحقيته في الحكم وأفضليته على غيره انطلاقا من مخزون ثقافي مشترك يجعل المتلقي يستجيب ويقتنع بسرعة، فانطلاقا من قول **ابن ميمون** السابق يتّضح أنّ المجتمع الجزائري انتشرت به بعض الاعتقادات الخاطئة التي أصبحت بمرور الزمن قناعات وقيم متواضع عليها تتمثلها الذات الجزائرية، حيث عملت هذه الأنساق عملها وأصبحت تتحكم في توجيه السلوك والرؤى، بل وتفرض سلطتها على الأفراد وهذا ما جعل عبد الفتاح كليطو يصف النّسق الثقافي قائلا: "ونعني بالنسق الثقافي بكلّ بساطة مواضعة (اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيتيقية ...) تفرضها، في لحظة معينة من تطوّرها، الوضعية الاجتماعية، والتي يقبلها ضمنيا المؤلف وجمهوره"[30]، والظاهر من قول الكاتب: "فأول من أشار عليه أبوه، وهو نور الدين أبو الحسن علي بن محمد القرشي النسب، العربي الإقليم، النكداني الدار والمنشأ."[31] الفخر بنسب الدّاي محمد بكداش، لكنّ المادح –في الحقيقة– اتّخذ من النسب وسيلة لتمرير رسالة مضمرة وهي تحقيق القبول والرضى الدّيني للداي **محمد بكداش** لما للنسب من أهمية دينية من أجل تمهيد الطريق فيما بعد لمبايعته حاكما وضمان استقرار حكمه ودوامه، خاصة وأنّ العصر قد شهد عدّة اضطرابات سياسية أدت في كثير من الأحيان إلى الاغتيالات ليعطي فسحة للقارئ بالصمت، الذي حاز على مساحة سردية قد تفوق المساحة الكتابية في دلالاتها، إذ أضحى يمثل خطابا في حد ذاته لا ينقشع إلاّ من خلال الحفر في مضمراته المستكينة خلف البياض الذي يؤطره ويعلله تأويل القارئ الذي أُمهِل فترة قرائية تمكنه من التغلغل أكثر في أجواء الفخر.

2/ النّسق السّياسي.

يتمظهر هذا النّسق من خلال ممارسة كاتب المقامة هيمنته على خطاب المقامة، فقد كان الشخص الوحيد الذي يتحكم في مجريات الأحداث ليسطّر النهاية التي يريد الوصول إليها، ولم يرد أي خبر في

المقامة عن غيره، بل كان مصدر الخبر في كلّ ما يسرده "كان من أهل الفضل والمجد."[32] ، "ولا شكّ أنّه كان –رضي الله عنه –ممن تعددت في الفضائل مناقبه."[33]، "وحاز قصب السبق وجال."[34]، "ولازال مولانا على هذه السيرة"[35].

ورغم السلطة التي مارسها **ابن ميمون** إلاّ أنّ نص المقامة بوصفه حامل نسق يكشف من حين إلى آخر عن هيمنة المؤسسة الاجتماعية؛ تلك المؤسسة التي نظنها مناقضة لسلطة الفرد، لكنّها في الحقيقة عملت على تأييدها مما يضعنا بإزاء مؤلِّف مزدوج؛ مؤلِّف حقيقي وهو الكاتب، ومؤلِّف اجتماعي صنعته الثقافة، وفي كلتا الحالتين لم نجد انفصاما بينهما لأن كلّ واحد منهما يصنع الآخر بطريقة ما "بمعنى أنّ المؤلف المعهود هو ناتج ثقافي مصبوغ بصبغة الثقافة أولا، ثم إنّ خطابه يقول من داخله أشياء ليست في وعي المؤلِّف، ولاهي في وعي الرعية الثقافية، وهذه الأشياء المضمرة تعطي دلالات تتناقض مع معطيات الخطاب"[36]، فقد كان **ابن ميمون** يؤيد حكم الدّاي **محمد بكداش** وسعى من البداية إلى ايجاد الأرضية المناسبة لكسب التأييد والولاء، انطلاقا من القيم المشتركة والمقرّرة ثقافيا– التي لم يكن على وعي بها – كالإيمان بالكرامات والنّبوءات ...الخ، "فأوصى مولانا حين كان صغيرا أنّ ابني هذا سيكون على المغرب أميرا، وحقق الله به قوله، وكمل فيه مرغوبه وسؤله"[37]، وهكذا كان الكاتب عنصرا فاعلا ومفعولا به في خطاب المقامة، "وكان السيد إبراهيم بن سنان صاحب الشيخ يعرب عمّا في ضميره ويفشيه للأحبا فقال له: "قل لبكداش أهلا وسهلا به ومرحبا، فإنّي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول:" أخبر بكداش بأنّه يموت على حسن الخاتمة "[38]. ويتّضح لنا أنّ الدين كان خادما بشكل كبير للسياسة، ووُظِّف كما يُوظَّف الشاهد للإقناع، "والشاهد مهما كان نوعه يقدم الحجة وامكانية الإقناع والتأثير والوصول إلى عقل القارئ –أو قلبه على السواء –بسهولة ويسر"[39]، فقد وظفت الرؤيا –هنا– كشاهد على بلوغ محمد بكداش مرتبة عالية مما يعطيه أحقية تقلد منصب الداي دون سواه، واسقاط خصومه في نظر الرعية خصوصا وأن العصر عصر اضطرابات سياسية، فلربما يتحقق بعض الاستقرار في عهد الداي محمد بكداش المؤيد بالنبوءة والرؤيا مما يضفي عليه هالة قدسية تكون حجرة عثرة أمام خصومه. وهذه الأنساق التي تشكلت في غفلة من الذات تبقى"تمارس فاعليتها على نحو ما في المبدع"[40]، فهي أزلية وتشكّل عملها في المبدع دون وعي منه، **فابن ميمون** ينتصر لمثل هذه المعتقدات ويؤمن بها ويتخذ منها وسيلة لكسب تأييد الرعية ودعم الداي ما يفضح وقوعه في فخ الأيديولوجي أثناء مدحه، ففي خطاب المقامة إشارات وومضات كشفت عن المستور والمتواري خلف ظاهر النص .

3/ **النّسق الاجتماعي.**

يرى الأنثروبولوجي **تالكوت بارسونز T.parsons** أنّ "النسق الاجتماعي نظام ينطوي على أفراد فاعلين تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق وعلى نحو يغدو معه مفهوم النّسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي"[41]، فكل نظام يربط بين أفراد تتحدد علاقاتهم بوظائفهم وأدوارهم انطلاقا من قيم مشتركة ومتواضع عليها فهو نسق اجتماعي كما أنّ البناء الاجتماعي جزء لا يتجزأ عن النسق، ويرتبط النسق الاجتماعي في كثير من الأحيان بالشخصيات والعلاقات التي تجمعها فمقولة، "وله بسيدي أحمد البدوي يد سابقة ولاحقة "[42]، يبدو من خلالها أنّ الداي **محمد بكداش** له صلة قوية بأحمد البدوي، وهو أحد رجال الدين آنذاك، ولكن الحفر في تاريخ كلّ من الشخصيتين وفي التاريخ السياسي وربطه بالمقولة يروج لشيء آخر، "فأحمد البدوي ولد بفاس ونشأ بها، ودخل مصر أيام الملك الظاهر بيبرس فخرج لاستقباله بعسكره، واحتفى به وأنزله مقاما محمودا"[43] فلِمَ لا يحظى الداي **محمد بكداش** بذات الحفاوة والاستقبال وينزّل المكانة التي يستحقها وهو المعروف بتدينه وورعه وعدله وشجاعته ...الخ ؟، ألم تجر العادة عند العرب أن يكرموا من نزل عندهم ويقدموه إن كان أهلا لذلك، و**محمد بكداش** أولى الناس بذلك نظرا لما تميز به من صفات وفضائل ذكرها الكاتب أثناء مدحه له، ثم إنّ الذاكرة العربية اعتادت أنّ تحتفي بكل ماله صلة بالدين الإسلامي وبالقيم العربية ولذلك كان **ابن ميمون** "ينطلق من نسقه الذي يمثل ذخيرته ونماذج اشتغاله"[44] بمعنى أنّ الكاتب كان ينطلق من أسس وقيم مشتركة، ففي كلّ مرة يتعرض إلى ذكر فضائل الممدوح نجده ينطلق من الثقافة العربية التي تؤصل للاحتفاء بالفحل خاصة ما أضمرته مقولة "وقد تواترت من فضائله – قبله – ما يعجز الجزر والمد، ويستحق الخلود والود."[45] التي عكست تفوق الممدوح وتربعه في أعلى الهرم وهيمنته دينيا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا واتخاذه نموذجا يحتذى به، بفعل ما تميز به من خصائص كالشجاعة والقوة والأخلاق والرجولة وسداد الرأي والحكمة الخ ...ما يقصي غيره ويضعهم في مرتبة أدنى ويهمشهم، وإن كان المهمشون هنا هم منافسوا الداي **محمد بكداش**، هذا الفحل الذي اتسم بصفات خاصة به أكسبته صفة الشخصية النموذجية، لم تكن ذاته متعاظمة أو متسلطة وإنما اكتسب صفة النموذجية بفعل ما توافر له من صفات فاضلة وأخلاق كريمة وما أحدثته الثقافة بمختلف أنماطها ووجوهها حول هذه الشخصية، ويبرز الاحتفاء بالفحل أيضا من خلال مقولة "كان من أهل الفضل والمجد."[46] التي يركن فيها الكاتب إلى استعراض فضائل الأنا العاكسة لفضائل الغير، فنجده قد عمد بكامل وعيه إلى

ذكر شخصية واحدة ليعممها على باقي الشخصيات وإن لم تذكر في السياق، وكأنما أراد أن يعبر من خلال قوله عن الذات العربية أو بالأحرى المجتمع العربي الإسلامي الذي قاد العالم في فترة من فتراته المزدهرة ملمحا إلى امكانية الرجوع إلى السابق في ظلّ حكم الداي **محمد بكداش**.

لقد توارت هذه المضمرات النسقية تحت قناع المدح باعتباره "مجموعة معقدة من العلاقات بين الوعي الفردي والمجتمع، وهو مكيف للغايات المخصصة له، يرتديه الفرد أو ينزلق فيه، أو يتملك هو الفرد ويستحوذ عليه من حيث لا يدري، إنّه محسوب ومنظم ومصنع بهذا الشكل لأنه يرمي إلى خلق انطباع ما عند الآخرين من جهة، وإلى إخفاء وتورية وتمويه طبيعة الفرد الحقة من جهة أخرى"[47]، فالمدح اتّخذ قناعا من أجل تمرير رسائل لا يمكن أن تنكشف إلاّ من خلال قراءة واعية لا تنفصل عن الواقع الثقافي للمجتمع الجزائري.

الخاتمـة.

من خلال دراستنا للمضمرات النسقية لخطاب المدح في المقامة الأولى "في نبذة من أخلاقه المرضية، ومما أشار به عليه بعض السادات الصوفية" **لابن ميمون الجزائري** توصلنا إلى النتائج الآتية:

1/ تنوعت أشكال المدح واختلفت في مقامة ابن ميمون الجزائري لتشمل الفخر بالنسب وتعداد فضائل الممدوح وتخليد سيرته، والمقامة كلها مدح من بدايتها إلى نهايتها.

2/ اتخذت المقامة من خطاب المدح الظاهر وسيلة لتمرير عدة أنساق مضمرة تمثلت في النّسق الديني الذي تجلى من خلال معتقدات المجتمع التي اتخذها الكاتب وسيلة لدعم موقفه، النّسق السياسي الذي برز من خلال ممارسة الكاتب سيطرته على خطاب المقامة، لتوجيه المتلقي وفق الرؤية التي يريدها ويسعى إليها متخذا من الدين مطية لذلك، أما النّسق الاجتماعي فتمظهر من خلال القيم المشتركة بين أفراد المجتمع والرموز التي تشكلت دون وعي منهم وأصبحت توجه سلوكاتهم .

3/ كشفت الأنساق المضمرة في مقامة **ابن ميمون الجزائري** عن ترسبات عميقة في ذات الكاتب، وفي اللاّوعي الجمعي للمجتمع آنذاك، عملت على توجيه خطاب المقامة من خلال ممارسة عملها على المبدع وممارسة المبدع من جهة ثانية سلطة على نص مقامته، وإن كانت سلطة لا تنفصل هي الأخرى عن سلطة ثقافة المجتمع، ويبدو من خلال القراءة الثقافية للنص المقامي الاحتفاء بالفحل من خلال إسقاط شخصيته على الداي **محمد بكداش**، ولكن بتغيير بعض الملامح.

هوامش:

*ابن ميمون الجزائري: هو أبو عبد الله محمد بن ميمون الجزائري، أهملت جميع المصادر تحديد زمان الولادة والوفاة وضبط مكانهما، كان معاصرا للداي محمد بكداش في القرن الحادي عشر الهجري (11هـ).ينظر محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، (1981)، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر)، ط1،المقدمة .

[1] **ابن منظور(جمال الدّين محمد بن مكرم): لسان العرب**، (1990)، دار صادر (بيروت، لبنان)، (دط)، ص 179/06.

[2] **الفيروزبادي(مجد الدّين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط**، (2005)، مؤسسة الرسالة (بيروت، لبنان)،ط8، ص925.

[3] عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، (1998)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون (الكويت)، ع 232، ص 185.

[4] ناصر الحجيلان: الشخصية في قصص الأمثال العربية (دراسة في الأنساق الثقافية للشخصية العربية)، (2009)، النادي الأدبي (الرياض)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء)، ط1، ص 32.

[5] ابن منظور: مرجع سابق، ص492/04..

[6] قنصوة صلاح: تمارين في النقد الثقافي، (2007)، دار ميريت (القاهرة، مصر)، ط1، ص5.

[7] المعموري أحمد عبيس عبيد: نهج البلاغة جمعا وتحقيقا في ضوء النقد الثقافي، (2014)، المركز العربي للطباعة والنشر، (بابل، العراق)، (دط)، ص15.

[8] عبد الله الغذامي:النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، (2000) (الدار البيضاء، المغرب)، ط1، ص 30.

[9] **ابن فارس (أحمد بن زكريا القزويني): معجم مقاييس اللغة**، (1979)، تح عبد السلام هارون، دار الفكر (دمشق، سوريا)، (دط)، ص 308/05.

[10] عبد الملك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي، (2007)، الطباعة الشعبية للجيش، (الجزائر)، (دط)، ص12.

[11] ابن ميمون الجزائري: المرجع نفسه، ص 114.

[12] المرجع نفسه، ص 115.

[13] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[14] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[15] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[16] المرجع نفسه، ص 116.

[17] المرجع نفسه، ص116 و117.

[18] المرجع نفسه، ص 115.

[19] المرجع نفسه، ص 116.

[20] المرجع نفسه، ص115.

[21] المرجع نفسه، ص117.

[22] المرجع نفسه، ص116.

[23] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[24] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[25] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[26] ينظر عبد الفتاح كليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية، (2001)، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، (الدار البيضاء، المغرب)، ط2، ص6.

[27] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، ص16.

[28] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص 115.

[29] الغذامي:المرجع نفسه، ص 67.

[30] عبد الفتاح كليطو: المرجع السابق، ص 8.

[31] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص 114.

[32] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص 115.

[33] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص 116.

[34] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص117.

[35] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص 118.

[36] الغذامي: المرجع نفسه، ص 75 و76.

[37] ابن ميمون، المرجع نفسه ص 115.

[38] ابن ميمون، المرجع نفسه، ص 118.

[39] إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، (1999)، دار الآفاق (الجزائر)، ط1، ص 97.

[40] عبد الفتاح أحمد يوسف: قراءة النص وسؤال الثقافة، (2009)، عالم الكتب الحديث، (الأردن)، ط1، ص5.

[41] ايديت كويزيل: عصر البنيوية، (1993)، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح (الكويت)، ط1، ص 411.

[42] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص 115.

[43] ينظر ابن ميمون: المرجع نفسه، ص155(الهامش).

[44] أحمد يوسف: القراءة النسقية –سلطة البنية ووهم المحايثة –، (2007)، الدار العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1، ص121.

[45] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص117.

[46] ابن ميمون: المرجع نفسه، ص 115.

[47] كارل غوستاف يونغ: جدلية الأنا واللاوعي، (1997) تر: نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، (سوريا)، ط1، ص117.

قائمة المراجع:

1.إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، (1999)، دار الآفاق، (الجزائر)، ط1.

2. **ابن فارس (أحمد بن زكريا القزويني): معجم مقاييس اللغة**، (1979)، تح: عبد السلام هارون، ج5، دار الفكر، (دمشق، سوريا)، (دط).

3. أحمد يوسف: القراءة النسقية –سلطة البنية ووهم المحايثة –، (2007)، الدار العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1.

4.المعموري أحمد عبيس عبيد: نهج البلاغة جمعا وتحقيقا في ضوء النقد الثقافي، (2014)، المركز العربي للطباعة والنشر (بابل،العراق)، (دط).

5.ايديت كويزيل: عصر البنيوية، (1993)، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، (الكويت)، ط1.

6.عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، (1998)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ع 232، (الكويت).

7. عبد الفتاح أحمد يوسف: قراءة النص وسؤال الثقافة، (2009)، عالم الكتب الحديث، (الأردن)، ط1.

8.عبد الفتاح كليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية، (2001)، تر:عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، (الدار البيضاء، المغرب)، ط2.

9.عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، (2000)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، المملكة المغربية)، ط1.

10.عبد الملك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي، (2007)، الطباعة الشعبية للجيش، (الجزائر)، (دط).

11.**الفيروزبادي (مجد الدّين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط**، (2005)، مؤسسة الرسالة، (بيروت، لبنان)،ط8.

12. قنصوة صلاح: تمارين في النقد الثقافي، (2007)، دار ميريت (القاهرة، مصر)، ط1.

13.كارل غوستاف يونغ: جدلية الأنا واللّاوعي، (1997) تر: نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، (سوريا)، ط1.

14. محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، (1981)، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر)، ط1.

15. **ابن منظور (جمال الدّين محمد بن مكرم): لسان العرب**، (1990)، مج6، دار صادر (بيروت، لبنان)،(دط.)

16. ناصر الحجيلان: الشخصية في قصص الأمثال العربية (دراسة في الأنساق الثقافية للشخصية العربية)، (2009) النادي الأدبي (الرياض)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء)، ط1.